
الحافظ شرف الدين الدمياطي^(١)

٦١٣ - ٧٠٥ هـ - ١٦٧٧ - ١٣٠٦ م

عاش الحافظ أبو محمد شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف الدين التوني الدمياطي - ويعرف بابن الماجد - حياته الطويلة الحافلة في الفترة من أوائل القرن السابع الهجري إلى أوائل القرن الثامن .

وهي فترة حفلت بأحداث جد خطيرة شغلت العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، كان من أبرزها خطراً وأعماقها أثراً سقوط الخلافة الاسلامية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وما صاحب ذلك من موجات الغزو المتتالية على البلاد الاسلامية من التتار والمغول والصليبيين .

وقد تميزت هذه الفترة بطائفة من العلماء والفقهاء الذين عاصروا الحافظ الدمياطي ، من أمثال سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وشيخ الاسلام ابن تيمية ، والحافظ زكي الدين المنذري ، والشرف اليونيني ، والحافظ بن مسدي ، وأبي شامة المقدسي ، وابن دقيق العيد ، ونصير الدين الطوسي ، وابن خلكان ، وطائفة أخرى أدركت هؤلاء وأخذت عنهم ، ولحقت بعصرهم ، منهم الحفاظ المشاهير : المرزى والذهبي والبرزالي وابن ناصر الدين ، وابن كيكليدي والتقي السبكي وغيرهم

وكان لهؤلاء العلماء أثر كبير في مجرى الأحداث السياسية والأحوال العامة ، التي زخر بها هذا العصر ، بما قدموه من الفتاوى الفقهية والآراء الاجتهادية والمؤلفات الهامة ، وبما أبدوه من المشاركة الفعالة في جميع ما شغل أولى الأمر والحكم في العالم الاسلامي عصرئذ ، مما حفظ على المسلمين كلمتهم ، ووحد صفوفهم وجمع شملهم ، ورفع لواء دينهم وصان شريعتهم وأحكامها .

(١) مقدمة المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح للدمياطي تحقيق محمد رضوان وعبد الملك بن دهيش .

فى هذه الفترة الخطيرة ، فى سنة ثلاث عشرة وستمئة منها ، ولد حافظ عصره ومسند وقته الحافظ الدمياطى فى « تونة » من عمل مدينة تنيس [تعرف الآن بكوم سيدى عبد الله بن ملام فى جزيرة بحيرة المنزلة] . وكانت نشأته بمدينة دمياط أحد ثغور البلاد المصرية الهامة ، وفيها تفقه فى مذهبه وقرأ القراءات على الأخوين الامامين أبى المكارم عبد الله وأبى عبد الله الحسين ابنى منصور السعدى وسمع بها الحديث منهما ، ومن الشيخ أبى عبد الله محمد بن موسى بن النعمان وهو الذى أرشده لطلب الحديث ، بعد أن كان مقتصرًا على الفقه وأصوله على مذهب الامام الشافعى ، وكانت سنة عندما طلب الحديث ثلاث وعشرون سنة .

ثم انتقل إلى الاسكندرية ، فسمع بها فى سنة ست وثلاثين وستمئة على الجم الغفير والعدد الكثير من علمائها وبخاصة من أصحاب الحافظ أبى طاهر السلفى ، ثم قدم القاهرة وعنى بهذا الشأن رواية ودراية ، ولازم الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، فسمع عليه وأخذ عنه .

وفى سنة ثلاث وأربعين حج إلى الحرمين الشريفين ، وارتحل إلى الشام سنة خمس وأربعين ، وإلى الجزيرة وإلى العراق مرتين ،

وفى هذه البلاد أخذ عن شيوخها وسمع عليهم وانتفع منهم .

كما أنه سمع على شيوخ دمشق وحماة وحلب التى لازم فيها الحافظ أبى الحجاج يوسف ابن خليل - وماردين وبغداد ، وفيها خرَّج أربعين حديثاً لأمير المؤمنين المستعصم بالله أبى أحمد عبد الله بن المستنصر بالله العباسى ، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد .

وكانت أكثر إقامته فى دمشق والقاهرة ، وفيها نشر علمه وانتفع به الطلاب وأخذ عنه الفقهاء والعلماء ، وبلغ فى العلم مكانة مرموقة حدت بالامام تاج الدين السبكى أن يصفه فى طبقات الشافعية الكبرى : « بحافظ زمانه ، وأستاذ الأستاذين فى معرفة الأنساب ، وإمام أهل الحديث المجمع على جلالته ، الجامع بين الدارية والراوية بالسند العالى القدر » . كما جعلت المؤرخ صلاح الدين بن شاکر الكتبى فى كتابه « فوات الوفيات » يصفه : « بالامام البارع الحافظ النابة المجد علم المحدثين ، عمدة النقاد » . كما قال عنه الحافظ العزى : ما رأيت أحفظ منه . وكما يقول البرزالى : « كان آخر من بقى من الحفاظ وأهل الحديث أصحاب الرواية العالية والدراية الوافرة » . وكما يقول اللذهي فى

معجمه : « العلامة الحافظ الحجة أحد الأئمة الأعلام وبقية نقاد الحديث » . وكما وصفه الامام أبو حيان الأندلسي : « بحافظ المشرق والمغرب » .

ولا شك أن ما ذكره هؤلاء العلماء عنه يعبرٌ بصدق وحق عن قيمة هذا الامام الجليل الذي بلغ في علوم عصره ، وخلف من المصنفات الجليلة ما يشهد بعلو كعبه ورفعة منزلته بين معاصريه ، كما يوضح مكانة من أخذ عنهم وسمع عليهم من العلماء الكبار في العلم الاسلامي من أمثال : بن المُقَيَّر ويوسف بن عبد المعطى المَحَلِّي والعَلَم بن الصابوني والكمال بن الضرير وابن العَلِيق وابن قميرة وموهوب الجوالقي وهبة الله بن محمد بن مفرج الواعظ وشعيب بن الزعفران وابن رواح وابن رواحة وابن الجميزي والرشيد بن سلمة ومكي بن علان ، وأصحاب السلفى ، وشهده وابن عساكر ، وخلق من أصحاب المحدث ابن شاتيل والقزاز وابن برى النحوى وابن كليب وابن طبرزد وحنبل والبوصيرى والخشرى . وقد بلغ عدد شيوخه - كما ذكر الحافظ بن حجر فى الدرر الكائنة - ألفا ومائتين وخمسين شيخاً^١ .

ومع جلالة قدر هؤلاء الشيوخ ورفعة منزلتهم كانت للحافظ

الدمياطى مكانة رفيعة أتاحت له أن يُملَى ويُحدَّث فى حياتهم ، ويحتل بينهم مركزاً مرموقاً جعل كثيراً من رفقاءه وقرنائه يأخذون عنه ويسمعون منه ويكتبون أماليه . ومن مشاهير العلماء الذين تتلمذوا على الحافظ الدمياطى وأخذوا عنه : صاحب كمال الدين بن العديم ، وأبو الحسين اليونينى ، والقاضى علم الدين الأختائى ، وعلم الدين القونوى ، والشيخ أثير الدين أبو حيان النحوى ، والحافظ فتح الدين بن سيد الناس ، والعلم البرزال ، والزكى المِزى ، والعمر النويرى ، ومحيى الدين النووى ، وتقى الدين السبكي الذى كان أكثرهم ملازمة له وأخصهم بصحبته ، وهو آخر خلق الله من المحدثين به عهداً .

لقد كانت للحافظ الدمياطى فى حياته وجاهة وحرمة وجلالة ، فقد كان موسعاً عليه فى الرزق ، وتولى مناصب علمية هامة كمشيخة الظاهرية والمنصورية ، وكان جميل الصورة جداً ، مليح الهيئة ، حسن الخلق ، بساماً ، نقى الشَّيْبَة ، فصيحاً لغوياً ، مقرئاً سريع القراءة ، جيد العبارة كبير النفس ، كثير التقنن حسن المذاكرة ، حسن العقيدة .

(١) راجع معجم شيوخ الدمياطى (ويوجد منه الجزء الثالث فقط فى مكتبة الأزهر بالقاهرة برقم ٣٢٦ مصطلح وعليه سماعات وإجازات مؤرخة سنة ٦٨١ وعليها أيضاً خط المؤلف .

وتلك صفات إذا اجتمعت لأحد ، حفظت عليه حرمة ورفعت درجته وصانت كرامته .
فما بالك إذا اقترنت بهذه الصفات المنزلة العالية في العلم والمعرفة وجودة
التصنيف .

وفاته

وقد ظل الدمياطى طول حياته يصنف ويجمع ويدرس في جميع الفنون وبخاصة علوم
الحديث ، حتى مات فجأة حين صعد إلى بيته فغشى عليه في السلم - كما يقول ابن
حجر - أو كما يقول ابن تغرى بردى : كانت وفاته فجأة بالقاهرة بعد أن صلى العصر
غشى عليه في موضعه . فحمل إلى منزله فمات من ساعته وكان ذلك في يوم الأحد
الخامس عشر من ذى القعدة سنة خمس وسبعمائة للهجرة النبوية ، ودفن في مقابر باب
النصر بالقاهرة ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب . رحمه الله تعالى وعفا عنه ونفعنا
ببركته وعلمه .

مصنفاته

ذكرت المصادر التي ترجمت للدمياطى عدداً من مصنفاته ، وصل بعضها إلى علمنا ولم
يصل إلينا بعضها الآخر ، وربما كانت له مصنفات أخرى لم يذكرها المترجمون له ولم
تحفظ لنا المخطبات منها شيئاً بين مقتنياتها ، وها هي أسماء ما أمكننا جمعه من تأليفه
مرتبة أبجدياً .

- ١ - أخبار عبد المطلب بن عبد مناف .
- ٢ - أخبار بني نوفل .
- ٣ - الأربعون الأبدال في تساعيات البخارى ومسلم (انظر رقم ٩) برنامج المكتبة
الخالدية - بالقدس ٧٦ (١) .
- ٤ - الأربعون الحلبية في الأحكام النبوية .
- ٥ - الأربعون في الجهاد .
- ٦ - الأربعون المتباينة بالاسناد المخرجة على الصحيح من حديث أهل بغداد .
- ٧ - الأربعون الصغرى (مختصر الكتاب السابق) .
- ٨ - التسلى والاعتباط بثواب من تقدم من الأفرات [دار الكتب ١٦٠ حديث م] .

- ٩ - جزء فيه أحاديث عوال وأبدال وموافقات وتساعيات ومصافحات وأناشيد ومقطعات
12' 1800 Esc² (الاسكوريال بمدريد) .
- ١٠ - ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده وأسلافه .
- ١١ - السيرة النبوية (لعله الكتاب الاتي برقم ٢٠) .
- ١٢ - العقد المثلث فيمن اسمه عبد المؤمن .
- ١٣ - فضل الخيل (منه نسخ خطية في باريس ٢٨١٦ ، أيا صوفيا ٤١٥٨ ، أسعد أفندي ١٨٢٤ ، وهو مطبوع) .
- ١٤ - قبائل الخزرج (ويسمى أيضاً : أخبار قبائل الخزرج أخى الأوس) .
- ١٥ - كشف المغطى في تبين الصلاة الوسطى (دار الكتب ٥٩٣ حديث) .
- ١٦ - المائة التساعية في الموافقات والأبدال العالية .
- ١٧ - المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح .
- ١٨ - المجالس البغدادية .
- ١٩ - المجالس الدمشقية .
- ٢٠ - مختصر في سيرة سيد البشر - خ .
- 1007' Bank Xv (بانكبور بالهند)
- ٢١ - معجم شيوخ الدمياطى (١ - ٣) الجزء الثالث فقط بالمكتبة الأزهرية برقم ٢٢٦

مصطلح .

- ٢٢ - حواش على البخارى بهوامش نسخته .
- ٢٣ - حواش على مسلم بهوامش نسخته .

هذه هي أسماء المؤلفات التي جمعناها من الكتب التي ترجمت له وهي المذكورة في مصادر ترجمته بعد قليل بالاضافة إلى ما جاء في فهرس دار الكتب المصرية والأزهرية ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان .

مصادر الترجمة

١ - تذكرة الحفاظ	للذهبي	المتوفى سنة ٧٤٨هـ - ٤ : ١٤٧٧ (طبع الهند ١٣٧٧ / ١٩٥٨ م)
٢ - طبقات القراء	للذهبي	المتوفى سنة ٧٤٨هـ - ٢ : ٥٨٢ (طبع القاهرة ١٩٦٩ بتحقيق الشيخ محمد سيد جاد الحق)
٣ - فوات الوفيات	لابن شاکر الکتبی	المتوفى سنة ٧٦٤هـ - ٢ : ١٧ (طبع بولاق ١٢٨٣)
٤ - مرآة الجنان	لليافعی	المتوفى سنة ٧٦٨هـ - ٤ : ٢٤١ (طبع الهند ١٣٧١)
٥ - طبقات الشافعية	للسبکی	المتوفى سنة ٧٧١هـ - ٦ : ١٣٢ (طبع المطبعة الحسينية)
٦ - تاريخ علماء بغداد	لابن رافع السلامی	المتوفى سنة ٧٧٤هـ - ١٢٠ : ١٢٢ (طبع بغداد ١٣٥٧)
٧ - الدرر الكامنة	لابن حجر	المتوفى سنة ٨٥٢هـ - ٢ : ٤١٧ (طبع الهند ١٣٥٠)
٨ - النجوم الزاهرة	لابن تغرى بردی	المتوفى سنة ٨٧٤هـ - ٨ : ٢١٨ (طبع دار الكتب المصرية)
٩ - المنهل الصافي	لابن تغرى بردی	المتوفى سنة ٨٧٤هـ - ٣ : ٣٥٤ (مخطوطة دار الكتب رقم ١١١٣)
١٠ - حسن المحاضرة	للسیوطی	المتوفى سنة ٩١١هـ - ١ : ١٦٧ (طبع مصر)
١١ - شذرات الذهب	لابن العماد	المتوفى سنة ١٠٨٩هـ - ٦ : ١٢ (طبع القاهرة ١٣٥١)
١٢ - درة الحجال	لابن القاضی	